عبد الغفار مكاوي
أستاذ الفلسفة الذي جذبه الأدب

بقلم: علاء الدين وحيد(*)

قلة من القصاصين المصريين الكبار، من هي منقوعة في الروح المصرية، يقدم أصحابها الفن العظيم والعمق الأخاذ مثل عبد الغفار مكاوي. ومع ذلك لا يجد ما هو جدير به من تقدير يستأهله.. ومع مجموعته المختارة «يونس في بطن الحوت».. نعرض هذه اللوحات لإبداعه.

والروح المصرية تجد في التدين بمفهومها الشعبي ملاذها، وهي عاطفية تنتقص في أحيان كثيرة جوهر الإسلام بفعل الجهل والفهم المغلوط. ويمثل لها حب أهل البيت القصد والملجأ والعقيدة. وتصور «الست الطاهرة» بعض هذه السمات، من خلال معالجتها لهموم إنسان مصري بسيط. كشرت له الحياة عن أنيابها، وهو في أمس الحاجة إلى نظرة عطف منها. لقد طرده السيرك في شيخوخته، بعد أن أكله لحما ورماه عظما. بحجة انه لم يعد يستطيع أن يشارك في ألعابه، بعد أن وقع على ظهره، وأصيب وظل في الجبس أكثر من شهرين. ويحاول المسكين أن يجد عملا آخر.. ولكن من أين لقزم مثله أن يعثر على شغل مناسب.

ولما ضاقت به السبل وسدت في وجهه رحمة الناس، يتوجه إلى مقام السيدة زينب يشكو لها وقف الحال وظلم البشر. «كلمة منك تفتح الأبواب دعوة منك تحنن القلوب، لأجل الحبيب الشفيع تشفعي لي يا حبيبة» ولما كان درويش يعد نفسه من محاسيب السيدة المخلصين فهو يدرك أن ما تهمس به إليه ردا على أسئلته، هي بعض حقوقه التي يتميز بها عن غيره في هذا المجال وهو يؤمن تماما بحوارها معه، وما يسمع هو بالتحديد صوتها المميز الذي تعود سماعه وعندما يقترب من الضريح ويلمس شباكه.. وهو فوق الوهم.. إيمان لا يعتوره الشك.

(*) مثقف مصري.

وتعطي المفارقة بين صدق القزم مع نفسه وبين وهمه.. نبض المأساة التي ظللت القصة إلى النهاية. فكأنها الكوميديا السوداء. لقد اطمأن درويش إلى منزلته من الست الطاهرة، وأراد أن يثبت لها أنه لازال يستطيع أن يقوم بألعابه البهلوانية ويتشقلب كما كان.. لقد كذبه الآخرون فلتصدقه هي. وطلب منها أن تشاهده لحظة واحدة وهو في الضريح، ولما كان لم يبق له إلا حاميته فقد فعل وهاج من في المسجد وأوسعه ضربا وجاء البوليس ورماه في التخشيبة «على البرش الخشن في العتمة والرطوبة وسط الفئران والبراغيث».

وكان أشد ما آلمه من هذا كله أن حاميته لم تمد له يدا وهو في بيتها ألم ممزوج بالعجب أن تتفرج عليه والكل يضربه فلا تمنع عنه الأذى وهو في محرابها ولا ينسى لها ذلك حتى عندما حادثته في الزنزانة لم يسامحها .. ومات.

«والست الطاهرة» التي نشرها عبد الغفار مكاوي سنة ١٩٦٤ تذكر بأخرى نشرت قبل عام ١٩٥٢ ليوسف السباعي وهي قصة «أبو الريش» مجموعة بين أبو الريش و«جنينة ناميش» وقعت أحداثها هي الأخرى في ضريح ولي من أولياء الله وصاحبها أيضا فنان هو أبو السيد أو الشيخ علي لوز. وكان أكثر حظا من درويش، فقد ألقي فنه في داخل الضريح الأعجب ورغم الدهشة المصاحبة، وربما كان الفارق بين المصيرين .. هو الفارق بين أجواء الاستبداد وأجواء الحرية.

والإنسانية هي الهدف الأول عند الفن الأصيل، ففي رحابته تجد الفهم والتعايش والتعاطف والمواساة أيضا. وهي في تناول عبد الغفار مكاوي.. مرفوعة الرأس لا تعرف الهوان، شأن الأبي مهما حاصرته المشاكل. وهذه الخاصية عندما تكون غير مصنوعة، تقرب بين الناس كما تزيل الحواجز بين الجنسيات. في قصة «بكاء» الراوية عجوز ألمانية تخاطب مصريا شابا، جاء حديثا يطلب العلم في بلادها، ويستأجر في مسكنها حجرة. وبينما هي تنظف الحجرة تتحدث إليه ويتحدث إليها، ولكننا لا نسمع إلا صوتها وحده وإجاباته على لسانه. وإذا بهذا الحوار يحيط بالشخصيتين إحاطة جيدة تجسدهما، مفضية إلى ما تخفي كلارا من هم دفين. عندما كانت شابة خجولة لم تصارح صديقها بحبها، فضاعت الفرصة إلى الأبد.. وقد جند وسافر إلى جبهة القتال أثناء الحرب العالمية الثانية ولم يعد. وإذا المأساة تتجدد عندما تجد من ينصت إلى همها. إن الفرصة الحقيقية الكبرى التي يحتاجها الإنسان تسنح مرة واحدة.. فإذا فاتته سعادة العمر. وبراعة مكاوي جعلت قصته تنتفض حياة وألما.

والنبض الإنساني الصادق هو عصارة فكر الفنان ورؤيته وعمقه، التي تملك أن تجسد التنفس البشري في قضاياه وهمومه وأحلامه. وليس مثل قضية مصائر الأيام استيعابا للحاضر والماضي، في مواجهة هي غالبا ليست في صالح اليوم الكئيب إزاء الأمس.. والنفس فتية والأمل غير المثقل بمسؤوليات الحياة يزغرد. وهذا ما تعالجه بامتياز قصة «واحد من أهل الكهف»، مصورة كيف تدوس عجلة الزمان الوحشية على الآمال الغضة، فتجهضها وتترك حياتنا خواء نعيش على هامشها.. بلا حماس أو رغبة حقيقية في شيء بعد أن ضاع الحلم العزيز.

لحظة واحدة .. ثانية واحدة.. نقلته من حال إلى حال، إلى النقيض تماما. مرهقا مكدودا غارقا في عرقه في هذا اليوم القائظ، وهو يسير في شارع الموسكي يتسوق بضاعة لدكان بقالته الصغير.. عندما فوجئ بصوت أنثى ينادي عليه من داخل سيارة فاخرة.. باسمه كاملا.. داعية إياه للركوب. وكانت سامية أو بريسكا القديمة العزيزة، التي لم يرها منذ اثنتي عشرة سنة .. زميلته في فريق التمثيل ومسرحية « أهل الكهف» لتوفيق الحكيم، وابنة الحكمدار على سن ورمح.. وأول حب في حياته. والذي كان يقوم بمساعدتها في البروفات، متحدثا إليها عن أهمية الفن وعظمة الفنانين، والمستقبل الباهر لمن يسلك طريقه وأمله في أن يفعل.

أين هو من هذا كله.. توفي أبوه، فلم يكمل دراسته واضطر إلى أن يستمر في فتح دكان بقالة ويعول أسرته. ودارت الساقية التي لا تعرف إلا الكدح ليل نهار، وتزوج وأنجب ولم يعد يفكر في شيء خارج الدائرة الضيقة. وتدعوه إلى بيتها، ويفاجأ بالثراء الزائد والترف. ويعرف أنها أصبحت ممثلة مشهورة، ويكتم جهله عنها.. فمن أين له أن يعرف وهو منقطع عن قراءة الصحف والتردد على السينما وكل ما يكلف مالا.. تلتهمه أعباء الأسرة والغلاء وتعرفه بالمخرج الذي ينتظرها، وتطلب منه أن يمثل بعض المشاهد القديمة، ويشجعه المخرج على ذلك لعله يمتلك موهبة.

وتصور القصة وقع هذا كله على بطلنا، فيكاد ينسحق متمزقا إزاء العالم الجديد. ولا يملك في النهاية إلا أن يفر من المنزل متحسرا ضائقا بنفسه أشد الضيق.

وقصص عبد الغفار مكاوي كما تقدم تكوين صاحبها ومستواه الفكري، تعكس أيضا أصداء حياته في مختلف مراحلها. وتتسم هي الأخرى بقضاياها الإنسانية، التي تستوعب لصدقها ذات صاحبها وذوات الآخرين. كما في «البيت» التي تتخذ من القرية موطن كاتبنا

مسرحا لها. جاء الأخ الشقيق إلى القرية لأول مرة بعد عودته من الخارج والحصول على الدكتوراه. وكان في استقباله في المحطة أخوه وابن عمه. ومنذ الدقيقة الأولى أدرك كل من الطرفين أن الجانب الآخر قد تغير. فخمس سنوات كافية لتحدث هذا الأثر، الذي جسمه فناننا الكبير في إشارات سريعة مركزة ذات دلالة.

رغم الغربة غير القصيرة في بلاد بره، فلم ينس صاحبنا بلدته الريفية وكل ما فيها، وأيامه التي قضاها بين ربوعها وأشواقه إليها. يقول لأخيه سليمان وابن عمهما حامد بعد أن غادروا المحطة.. «وحشتموني .. هل تعرفان ما في نفسي الآن؟ أن أذهب إلى بيتنا وألبس الجلابية والطاقية وأتمدد على الكنبة في المنضرة»، ووجم الآخران ولم ينطقا بكلمة. ويسأل الدكتور عن صحة أبيه وهل وصلهم الدواء الأخير له وزاد وجومهما. وأخذ حامد يهمس في أذن سليمان أن يصارح شقيقة، ولكن الأخير أراد أن يؤجل قليلا إخبار أخيه الدكتور بالفجيعة. ولم يغب العائد ما يخالط حديث أخيه من احتراز في القول، يخفي شيئا، وصارحه .. فلم يملك سليمان إلا أن يجهر. لقد مات الأب منذ سنتين، وكتمت الأسرة الخبر عنه خوفا عليه. وكانت هناك صدمة أخرى تنتظره، ربما كانت أمر لأنها من صنع البشر.. زوال البيت.. أصبح أنقاضا. كان قديما آيلا للسقوط، وأهم من ذلك أراد كل من الورثة أن يأخذ نصيبه وأسرعوا بهدمه. وللارتباط الشديد للدكتور بالبيت كان الوقع أحد وأكثر إيلاما.

والعمق الإنساني الذي يجسد حتى الشهيق والزفير، انتظم الفكر والقلب. وقدم لوحات أخاذة تنبض بالآهة، بما يعرض للمرء في حياته وحياة من يحب. في مرض الأب. تاه عقله الذي أنساه أن له ابنا حبيبا يدرس في الخارج، ويضطر سليمان أن يذكره به ويريه صورته، فلا يعرفه. ولوحة ثانية تغرس شوكها في الفؤاد. والضياع يمزق صاحبنا ويغرقه في لجته وهو يشاهد أنقاض البيت.. الذي استحوذ على حب دفين للأرض وذكريات ماضية. وجعله أكثر من موت أبيه، يحس باليتم. واللوحة الثالثة مع أنها ليست شخصية، إلا أنها أيضا وان كانت على المستوى العام أشعرته بالخيبة.. مثل بقاء عمال التراحيل على حالهم البائس، ذكرته بشكل قاس أن الامتهان لا يزال باقيا، وأن حقوق فئات كثيرة لا تزال معطلة.. في الضيعة الدكتوراه التي حصل عليها.

ولعل ألصق الأشياء بالإنسانية هي الحرية.. التي تعد روحها الفطرة التي فطر عليها الإنسان. وهدوء عبد الغفار مكاوي وصوته المهموس ووداعته أبعدت الأنظار عن هذا

العنصر في تكوينه كعاشق للحرية.. وأحد المؤمنين بها المدافعين عنها.. من المتفانين في حمل لوائها. يتخذ موقفه في عنفوان الطغيان، والحاجة ماسة إلى نضال الشرفاء ضد فجر القهر، ومساندة الشعب في معاناته. يفعل ذلك في صمت وبلا علو صوت. وإن كانت مضامينه بمثابة المتفجرات التي تقوض أركان الطغيان. وتبدد الإحباط وتجدد الثقة في الحرية.. التي تظهرها مواقف الشخوص ويدفعون ثمنها الغالي في مواجهة الاستبداد.

في الضجيج الذي يسود حياتنا الثقافية.. منهجا وأسلوبا وصوتا، وفي عدم المتابعة التي أصبحت قاعدة .. يضيع الصوت العميق المهموس والفن العظيم، الذي يكتبه عبد الغفار مكاوي، ويخسر القارئ متعة وزادا وفكرا هو في أمس الحاجة إليها.. ومع ذلك لا يدله أحد عليها. ومن أروع ما يقدم فناننا الكبير، مشاركة الأصلاء في معركتهم ضد الظلم والقهر.

تصور قصة «ابن السلطان» كيف يحاصر الاستبداد الفطرة الإنسانية التي يتطلع صاحبها إلى الحرية، فلا يبلغ من ذلك شيئا. لأن الطغيان بالمرصاد لكل من تنبس شفتاه بكلمة، حتى لو كان ريفيا يضيق بالقيود. وتهفو روحه إلى الانعتاق من الأسر الذي يلقي بظله على الناس والأشياء، في البلد الواقع تحت سيطرة الطغاة. ويحلم سيد ـ اسم على مسمى ـ في صحوه ومنامه بالمحرر، الذي تقترب سماته من المهدي المنتظر أو ما يسميه هو «السلطان». ويحس ببنوته له ويناديه بـ أبي « إنه أبي .. وأب جميع الناس .. يحبهم ويحبونه.. وحين يرونه قادما على ظهر فرسه الأبيض الأصيل يجرون نحوه.. من البيوت والحقول والأسواق..» عندما هتف « يحيا العدل» ترك وشأنه فما الشرطة والمجاذيب. وعندما صرخ «يسقط الظلم» تداعبت ونشطت شأنها إزاء العقلاء. وألقي القبض عليه، ويسأله الضابط عن الكفرة الذي يحاربهم السلطان، فيجيب الرجل منتشيا: «العسكر واليهود»!

ومجذوب عبد الغفار مكاوي يختلف بالقطع عن مجاذيب محمود البدوي ويوسف السباعي.. الذي ظهرت شخصياتهم قبل يولية ١٩٥٢، مع انه يتشابه معهم في بعض السمات مثل فقدان العدالة الاجتماعية. ويختلف عنهم ـ كما يقدم سعد مكاوي ـ في انه وليد مناخ التضييق على العمل السياسي وخنق الحريات وضياع حقوق الإنسان.

ومن أروع أعمال عبد الغفار مكاوي عن التسلط قصة «القط» التي تصور ببراعة تحول الكائن الوديع الطيب إلى هائج شرير. وكيف انتظر ظهوره بشوق ولهفة، وانتهت حياته

obeikandl.com

بالتخلص منه وسط اللعنات؛ فتدليله والعناية به أفسدتاه. جاء على رغبة شديدة فيه، من الصغير الذي حلم بقط رومي. ولما علمت الأم أن القطة الرومية ستلد، أوصتها بواحدة من القطيطات. وهكذا جاء «مسرور» السياف قاطع الرقاب في قصص هارون الرشيد في ألف ليلة وليلة.. قوة القتل الظالم قبل أي شيء آخر. ويصبح صاحبنا واحدا من أهل البيت، له ألذ طعام وأدفئ فراش. ولكنه ما لبث على مر الأيام وفي غفلة من الأعين التي أحاطته بالحب أن تنمر، وسرق الطعام والتهم الأرانب الصغار، وكان لابد من وضع حد لجبروته وقتله.. بإغراقه في الترعة.

«أصبحنا أمام وحش حقيقي، ومن يدري؟ إذا تركناه في هذه المرة فهل يقف عند حد؟ لقد أصبحنا حبيبنا وأملنا ولعبتنا عدونا الأول. هذا المخلوق العزيز المغمض العينين..من كان يصدق انه سيصبح طاغية مخيفا؟! هل كان في وسعنا أن نفعل غير ما فعلناه؟»

لقد استشرف مكاوي بوعيه وحسه المرهف الآفاق.. وحدث ما استبصر سنة ١٩٥٤!

والتسلط زيادة إلى قبضته الحديدية الظاهرة التي لا يخفيها، يشيع في المجتمع بحكم القوة الغاشمة واستخذاء الموطن أو ضعفه.. نفس مفاهيمه عند بعض القطاعات، التي يتفق تكوينها مع تكوينه، وتجد فيها استجابة لعقدهم ونقصهم وتسلطهم .. وكأنها في النهاية مسايرة لخط نظام الحكم والتعبد في محرابه. في قصة «مولانا السلطان» التي تدور أحداثها داخل فرقة مسرحية شعبية صغيرة متجولة .. يظل احد أفرادها وهو الراوي عشرين سنة كاملة، يقوم في المسرحية المقدمة بدور الحاجب، الذي لا يقول إلا كلمتين اثنتين بالعدد معلنا دخول البطل الأول.. مولانا السلطان. وقد ساءه على مر الأعوام أن يكون هذا دوره في الحياة والمسرح على السواء. بفضل ديكتاتورية صاحب الفرقة القائم بالتمثيل والإخراج والإدارة وكل شيء فيها. والذي يرفض أن يمنحه حقه في فرصه يبدي فيها مواهبه. وطال به الصبر حتى بلغ العشرين سنة، ويقرر التمرد والثورة على الاستبداد والمستبد، وليكن ما يكون.

«ويظهر أن الإنسان مخلوق لا ييئس بطبعه ـ فمجرد أن يتنفس دليل على انه لم ييئس بعد تماما ـ وانه في بعض الأحيان يصل به الطيش إلى حد أن يخاطر بكل شيء في سبيل نزوة طارئة يخيل إليه أنها الشعرة التي تصل بين وجوده وعدمه».

وبالفعل يقدم على قراره ويخسر كل شيء .. ويضرب ويطرد ويلقى في الشارع كالنفاية.. جزاء وفاقا على تمرده. والوسيلة التي لجأ إليها المتمرد ليحقق بها حريته، تستأهل الوقوف عندها طويلا.. لأنها تعكس ما يبلغ القهر من تسميم النفوس وإزهاق الأرواح وإشاعة الخلط بين المفاهيم.. أن العبارة التي خرج بها بطلنا على النص، تتفق تماما مع ما يبثه الاستبداد طوال السنوات في الناس، من قيم ومعان فاسدة تتراكم على مر الزمن في اللاوعي تماما. كانت العبارة ويا للدهشة لا تختلف في مضمونها عن هتافات العبودية .. «مولاي السلطان! هل تسمحون لي أن اقبل قدميكم»!! ومع ذلك، لأنها غير متفق عليها مع الأوامر، وغير مسموح للفرد أن يخرج عن النظام المرسوم قيد أنملة مهما اتفقت مع روحه.. لأن ذلك معناه ممارسة الحرية، وهي جريمة يحق عليها العقاب!

ومع تنوع معالجة مكاوي لقضية الحرية والقهر، بين واقعية ورمزية أو هما معا، فإن ما يتقدم هذا كله هو الفكر والمعنى الفلسفي المتعايش مع نبض الواقع. لتتخذ القضية مسارا أكثر إيغالا في النفس وأبعد مدى في العمق، مما يضعها في الحجم الذي تستأهله. في قصة «أسوار المدينة» التي تتناول مقاومة الشعب للطغيان، يكون السور العظيم الذي يحيط المدينة من جميع الجهات، هو آخر حدود المواطنين.. الستار الحديدي الذي يقيد حركتهم ويحد من هامش حريتهم. بينما هو على السنة الحكام الطغاة والمرتزقة من السياسيين التابعين ورجال الدين.. الحصن الحصين للمدينة. وإذا كان السوط والسجن والسيف هي أدوات الظالم في بطشه، فإن المواطن الأعزل إلا من إيمانه .. يستطيع مع ضعفه أيضا أن يقاوم البطش المسلح، بما خلفه الله فيه من عقل وإرادة وتضحية .. فلا يفل الحديد المادي إلا الحديد المعنوي الأكثر نفاذا. ويقوم ثلاثة من المواطنين بإحداث فجوة في السور.. وتقوم قيامة الحاكم وييسر «اللصوص» كما تطلق عليهم الحكومة وهم أبطال عند الشعب، عملية القبض عليهم لغرض في نفس يعقوب. ودخلوا السجن وكانوا هانئين .. ففقدان الحرية هي هي في السجن الكبير والسجن الصغير. وغنموا الوجبات التي كان الحصول عليها عسيرا وشاقا في المدينة في ظل الحاكم المستبد الذي يتاجر بأقوات الشعب والوظائف وكل شيء.

والطعام الوفير بالنسبة إلى طعامهم في بيوتهم ـ والراحة والنوم الهنيء، جعلهم يزدادون وزنا. وضاق الحاكم وفكر في إعدامهم، ولكن مدير الديوان اعترض خوفا من أن يثور الشعب ويهدم السور.. ويكون الحل إطلاق سراحهم .. ولكن المسجونين رفضوا، ويشجع حالهم

الشعب المحاصر الفقير فيكرر محاولتهم وتمتلئ السجون وتضطر الدولة إلى بناء سجون جديدة. ويكاد الحاكم يجن من هذا اللون من المقاومة، ويستدعي قاضي القضاة.

احكموا عليهم بعقاب أشد

الحكم في يدك يا مولاي

في يدي!

نعم هناك حكم واحد يريحنا من هذا العذاب

بماذا أحكم؟

احكم عليهم بالحرية:

الحرية؟ كيف؟

اهدم السور العظيم

والذي لم يلتفت إليه قاضي القضاة أو تغابى عنه، أن معناه قطع رقبة المستبد والاستبداد ولكن هل يمكن لأي طاغية أن يفعل ويفتح بإرادته باب الحرية .. بالطبع لا « ولم تزل أسوار مدينتنا كما هي عالية، مرتفعة، تحجب عنا رياح الشمال، وتكاد تحجب النور. وما برح أهل مدينتنا يتسللوا إليها في ظلمات الليل يغافلون حراسها، ويحفرون فيها ثغرة جديدة. أدرك أهل المدينة أن مدينتهم قد باتت وهي سجن كبير يمكن أن يتسع ويتسع حتى يضم كل هذا العدد من الناس».

بقي أن نقول أن دكتور عبد الغفار مكاوي كتب قصته في عام ١٩٥٢.

والقهر في قصة فناننا وكما مر بنا .. يتلازم مع الجوع. والسبب أن الحاكم المستبد بنهبه وسلبه ومغامراته الطائشة في سبيل بناء مجد مزعوم، يضيع ميزانية الدولة، ويحيل ثرائها فقرا، ويعاني الشعب وحده. في قصة أخرى هي «قيصر» يتضاعف جوع الشعب ويرتفع سعر الطعام ولا يهنأ به إلا الأغنياء والتابعون للسلطة، إلى درجة لا يتمكن فيها الفقير من ملئ بطنه، إذا قدم طلبا! وكان هم بطلها مقابلة الحاكم في موكبه، والتقدم بشكواه التي دفع عنها الرسوم المقررة.. ومع كل الهوان الذي رآه والأحلام التي راودته.. لم يفز بطائل لأن قيصر لم يمر وظل هو يشكو المسغبة!

وإذا كان أنيس منصور قد تمكن في الصحافة من أن يستأنس بالفلسفة، فقد قام بنفس الدور في القصة عبد الغفار مكاوي. وهو ما أعطى لإبداعه الفني بعدا مميزا وقواما فكريا قويا، ساهما في بناء عالمه القصصي، الذي يناقش قضايا الإنسان المصري والعربي في مختلف وجوهها. والاندماج بين مشكلات الواقع والخطاب والحس الفلسفي، في منظور ابن البلد المثقف يفرز مذاقا فريدا وفكريا وحياتيا معا؛ لأنه يجمع بين مستويين وطبقتين مختلفتين.. كما تعرض قصة «يونس في بطن الحوت» التي أطلق اسمها على المجموعة.

فأول ما يطالع المتلقي العائلي الذي يفجر الخلاف بين الابن الشاب وأبيه الدائر على حل شعره، تاركا أسرته بلا رعاية جريا راء ملذاته. وتفكير الأول في الحجر على الثاني، وسفره إلى المركز لسؤال بلدياته وكيل محامي في إمكان رفع الدعوى القضائية. ولما وصل متأخرا اتخذ مبيته في أحد الفنادق في حجرة مشتركة. وهذا الهم الذي يشغل بطلنا ويشغلنا، يظل ماثلا أمامنا حتى والأحداث تنحو ناحية أخرى، تبعد صاحبنا مضطرا عن هدفه. ما كاد يعرف أن شريكه في الحجرة يعمل قاضيا، حتى عرض عليه مشكلته طالبا النصح. وبعد أن انتهى من سرد قصته سأله الثاني عن اسمه..

يونس عبد الفتاح

يونس .. هيه .. ماذا تريد؟

أريد العدالة.

يونس .. وتبحث عن العدالة.. نفس الحكاية القديمة.

ولم يعرف الفتى أية حكاية، وغضب القاضي من جهله وأنبه بقسوة.. ولم يدر المسكين مسئوليته. وأخذ دفق القاضي بالحديث والكلام عن يونس والحوت يصيبه بالدوار، فلا يفيق أبدا. كيف حدثت المحنة ولماذا؟ هل تعرض يونس لحادث أم دخل في فم الحوت طائعا مختارا؟ وأين وجد الركن الآمن في جوفه ليمكث ثلاثة أيام وثلاث ليال؟ وبدا الحوار بين القاضي والفتى في جو الإرهاب كأنه استجواب خشي الأخير فيه من الإدانة! خاصة بعد أن واجهه الثاني بجريمته: «أنت يونس نفسه! يونس في بطن الحوت!» ولم يجد الفتى في النهاية وقد أحيط به تماما .. بدا من الصراخ وطلب النجدة!

لقد ارتبط اليونسان بالمعاناة الشديدة، وكأنها المواساة من القديم للحديث. ومع ذلك فإن صاحبنا لايزال يبحث عن حل لأسرته مع الأب ذي العين الزائغة!

وفي قصة «الراهب» المستوحاة من خرافة ألمانية قديمة، يتناول فناننا اهتمام شاب أحد الأديرة بقضية فلسفية هي «الأصيل والمصير»، ويتوقف عند عبارة وردت في الكتاب المقدس، غمضت عليه ولم يفهم معناها مع محاولاته المتكررة.. لأن ألف سنة مع عينيك مثل أمس بعدما غبر وكهزيع من الليل». وعندما يتعبه العثور على تفسير، يترك التأمل جانبا ويتابع تغريد العصفور في الخارج هزه صوته الشجي. ويتنقل معه من غصن إلى غصن ومن شجرة إلى شجرة، حتى دخل الغابة واستمتع وإياه بالطبيعة وفتنتها.. التي أنسته الوقت حتى غربت الشمس. وعندما حاول العودة التبست عليه المسالك، وبصعوبة تمكن من العودة إلى الدير. ويفاجأ أن «بوابا» جديدا لا يعرفه يفتح له، ويسأله عن هويته، وينكر أن في الدير راهبا بهذا الاسم! وتحين التفاتة من صاحبنا إلى مرآة قريبة، فيصدم أن يجد على صفحتها صورة شيخ لا شاب، ابيضت لحيته وتقوس ظهره. وأنكر نفسه وفزع لما رأى فزعا شديدا. وتبين من السجلات العتيقة أنه كان بالفعل في الدير من ثلاثمائة سنة!

وأدرك تفسير العبارة!

وأكثر الكتاب أصالة وتجديدا وتقدمية.. هم أقلهم حديثا عنها، لأنهم مشغولون بممارستها، وكذلك عبد الغفار مكاوي.. فالمتلقي أمام إبداعه .. إزاء فن عظيم يمتع ويقنع، وهو يغمس قلمه في صميم أحلامنا وأوجاعنا، على مستوى القضايا الخاصة والعامة أيضا. وزيادة على ذلك يطعم فنه بكل جديد ضروري لقصتنا المصرية والعربية. وفي هذا الإطار نلتقي بأكثر من تجربة فنية جديرة بالتقدير.

الأولى تستوعب الأسلوب أو الروح الفرعونية وصلتها الوثيقة بتنفسنا الحاضر. كما في قصة «التابوت» وبأسلوب تداخل الحاضر في الماضي، والتحام نبض اليوم بنبض الأمس.. كأنها من طبائع الأشياء وبلا تعسف .. تكون زيارة صابر للمتحف المصري وقد أحيل إلى المعاش. ومشاهدته لتوابيت الفراعنة المحنطة.. انعكاسا لواقعه في الوظيفة ورتابة حياته. فيتبدى الاحتفال به المنتظر ـ أو المتوهم ـ وشخصياته من المدير والرئيس والسعادة فراعنة

جدا.. تقمصتهم تعابير ومفاهيم ومعاني قدماء المصريين في الحياة والموت. مصورة بدقة الحياة الوظيفية الحديثة، بنفاقها وخوائها وبيروقراطيتها.

أما التجربة الفنية الثانية، فهي اختيار بعض المضامين الأجنبية والإشارة إلى مراجعها بوضوح، في كتابة قصة جديدة تستروح أنفاسا مصرية شرقية. كما فعل في أكثر من عمل في المجموعة «الذئب الذي أراد أن يدخل في جملة مفيدة»، « سيرة كلب يبحث عن إنسان»، و«الراهب».

obeikandl.com